

## فى تاريخ المشكلة اللغوية

للدكتور ابراهيم السامرائى

رئيس قسم اللغة العربية فى كلية الآداب

لغة تاريخ تبين فيه اصل اللغة ونشوءها وتطورها والمراحل التى قطعتها فى عمرها الطويل حتى نصل فى هذا البحث الى مآلت اليه فى عصرنا الحاضر ، كما ان لسائر العلوم تاريخا نهتدى فيه للاصول التى قامت عليها تلك العلوم ، ولسائر المراحل التى مرت عليها . والبحث فى العربية يؤدى بنا الى التزام الناحية التاريخية ، واذا قلت ان اللغة العربية بدع بين اللغات فلا أرانى اعدو الصواب كثيرا ، ذلك اننا لا نعرف تاريخ هذه اللغة فى مراحلها الاولى اذ ليس من المعقول أن هذه اللغة بدأت بهذه النصوص الشعرية الجاهلية . فهذه النصوص الشعرية الجاهلية تقدم للباحث نماذج عالية من العربية ، وهذه النماذج لا يمكن أن تكون بأى حال من الاحوال من البدايات فى اللغة ، فلا بد أن تكون العربية قد قطعت قبل هذه النصوص مراحل اخرى من تاريخها لم تكن فيها على هذا المستوى العالى من حيث قدرة اللغة على اداء المعانى ومن حيث توفر المادة العربية للتعبير عن النواحي المادية وانصرافها الى المعنويات من الامور توسعا ومجازا . ولا اريد أن أخوض فى موضوع الصحيح والمنحول من هذه النصوص ، فليس ذلك بضائر قيمة النصوص اللغوية ، وأنها صورة للحياة الجاهلية ، ذلك أن وجود المنحول من هذه النصوص لا يمنع من وجود الصحيح ونسبته الى قائليه .

ولا بد أن أن نبين أن الآثار الادبية فى العصر الجاهلى شعرية فى الغالب ، والنثرية منها قليلة جدا ، وهى ان وجدت ، فلا يصح الاطمئنان اليها . والى هذا ذهب الكثيرون من الذين عنوا بتاريخ الادب الجاهلى . ولا اريد أن اخضع الامثال القديمة الجاهلية للمادة التى لا يطمأن اليها ، فالامثال - على انها نثرية - لانستطيع أن نعدّها من النثر العالى الذى يقصد اليه الباحثون فى تاريخ الادب ، ذلك أنها مادة شعبية تعكس التجارب التى مرت بها المجتمعات القديمة . والامثال تعرض لاية أمة من الامم ولا سيما البدائية منها .

## مكتبتنا العربية

على أن الباحث في النصوص الشعرية الجاهلية واجد فيها من عيوب النظم شيئاً لا يجده في النصوص الشعرية في العهود الإسلامية ، وهذه العيوب تتعلق بالحفاظ على الوزن في الشعر .

وهذه الظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا بالناحية التاريخية . واعنى بذلك أن هذه النصوص لم تكتمل موسيقاها وأنها مرحلة من مراحل التطور الفني من حيث المبنى في القصيدة العربية . وانت واجد هذا الخروج عن ضوابط الوزن عند سائر الشعراء الجاهليين ، فدونك معلقة امرئ القيس لتجد فيها قوله :

إذا قامت تَضُوع المسك منها نسيم الصبا جاءت برىا القرنفل  
وقوله :

الا رب يومٍ لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل  
وقوله :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الا لبسة المتفضل

وقوله :

اصاح ترى برقاً اريك وميضه كلمع البدين فى حبي مكلل  
وقوله :

قعدت له وصحبتى بين ضارج وبين العيب بعد ما متأملى

وانت واجد شيئاً من هذه المخالفات فى شعر طرفة بن العبد كقوله :

كأن البرين والدماليج علقت على عشر أو خروج لم يخضد  
وقوله :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فان القرين بالمقارن مقتدى

ومنه ما جاء فى قصيدة زهير ، كقوله :

رعوا ما رعوا ظمئهم ثم اوردوا غماراً تفرى بالسلاح وبالدم

وهذه من السمات البارزة في القصيدة الجاهلية، وربما كان شيء منه في شعر المخضرمين من الشعراء • وهو من غير شك دليل على ان القصيدة العربية الجاهلية في طور التكوين من الناحية الفنية Technique وانها منتقلة من مرحلة الى أخرى وفي كل مرحلة من هذه المراحل تستفيد شيئاً لاستكمال عناصرها الفنية •

ولم يؤثر عن الجاهليين نصوص ثرية كثيرة كما هي الحال في الشعر ، وسبب ذلك معروف عند الباحثين في تاريخ الادب الجاهلي ، وليس من غرضنا في هذه المقالة أن نعرض لهذا الموضوع • على انه لا بد أن نقرر أن أمة تتسع لغتها لهذه النصوص الجميلة العالية من الادب لا بد أن يكون لديها شيء من النثر ، ولكن هذه النصوص الثرية التي نفترض وجودها لم تصل إلينا • إذاً فالباحث في النثر العربي مضطر أن يتبدى بالقرآن الكريم ويعد نصوص القرآن بداية هذا اللون الادبي من الناحية الواقعية ، وهو مضطر ايضاً أن يفترض أن النثر العربي لا بد أن يكون قد مر بمراحل تأريخية •

ولغة القرآن واسلوبه يطلعان الباحث على مستوى رفيع من حيث المبنى وغمارة المادة اللغوية ، ومن حيث قدرة هذه القوالب اللفظية على الاعراب عن دقائق المعنى ، وخواطر الفكر ، ولعل هذا كان السر الذي حدا بالباحثين الى القول بالاعجاز في القرآن •

وبالبحث في تاريخ القرآن يدلنا على ان لغة القرآن قد طبعت العربية بطابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الاقليمية ، واطلعت المجتمع العربي الاسلامي الاول على نموذج عال لهذه اللغة ، فأخذوا بها • وفي القرآن ينكشف الستار عن عالم فكري تحت شعار التوحيد لأول مرة في تاريخ اللغة العربية ، بحيث لا تعد لغة الكهنة والعرافين الفنية المسجوعة الا نموذجاً ضعيفاً له ، من حيث ظاهر وسائل الاسلوب ، ومسالك المجاز والدلالة (١) • والى مثل هذا ذهب المستشرق الفرنسي الكبير ( ريجيس بلاشير ) في محاضرة له ، فهو يقول : ومنذ ظهر الاسلام لم تعد اللغة العربية آلة عادية للكلام والتخاطب ، ولا لغة انسانية محضة بل شيئاً آخر • نعم لن نفهم جوهر العربية وكيانها ، بل لن نستطيع لها فهماً ان نحن اهملنا اهمية هذا « الحدث القرآني » هذا الحدث الذي يفضل

(١) يوهان فك ، العربية ٥ •

والبحث في تاريخ العربية يدلنا على الجهود التي بذلت كي تسود لغة التنزيل في وضوحها والتزامها الاعراب ، ولتكون لغة عامة يعرفها كل العرب لا أثر فيها للغات الخاصة التي اعتاد كل طائفة منهم استعمالها والقراءة بها ، فقد ورد ان عمر بن الخطاب قد سمع رجلاً يقرأ ( عتي حين ) في قوله تعالى : ( ليسجنه حتى حين )<sup>(٣)</sup> ، فقال من اقرأك ؟ قال : ابن مسعود ، فكتب اليه : ان الله انزل هذا القرآن عربياً ، وانزله بلغة قريش ، فأقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل<sup>(٤)</sup> .

وما استطاعت لغة القرآن والحديث أن تأتني على اللهجات الدارجة المحلية ، أو قل على العربية المستعملة السهلة ، والتي تخفف من قيود الضوابط الاعرابية الثقيلة . ومن هنا فالعربية شفعية التعبير منذ ان كانت ، ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ، وهي ملتزمة بضوابط الاعراب ، ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا انفسهم بعناء هذه الضوابط ، وربما تعدى الامر مسألة الاعراب الى الالفاظ نفسها ، فقد يكون في الفاظ الثانية ما هو بعيد عن العربية ، وأنه قد دخل فيها نتيجة اتصال العرب انفسهم بغيرهم من الاقوام ، والاتصال حاصل في كل عصر ، فقد تهيأ للعرب في أطراف شبه الجزيرة العربية أن يتأخموا اقواماً غيرهم ، فلم تسلم بذلك سليقتهم . ومن أجل ذلك حرص عمر على الأخذ بقراءة تعتمد على لغة قريش ، وإلى مثل هذا كان يرمى عثمان من جمعه القرآن ليكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحدة فنبذوا ما كان عندهم مما هو مغاير لما اتفق عليه .

ولا يعدم الباحث أن يجد في كتب التفسير والقراءات وكتب الغريب وكتب النحو من هذا الباب شيئاً كثيراً من القراءات . ومرد ذلك ان الناس قد اعتادوا على أساليب في التعبير خاصة بهم ، وبذلك قرأوا . وان طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة قد اعتبرت من شواذ القراءات . وتبين من البحث في لغة القرآن أن هذا الحدث القرآني العظيم قد عمل على توحيد العربية وطبعها بطابع خاص فيه الشمول وفيه العموم بحيث تيسر

(٢) ر . بلاشير ، مجلة الفكر العدد الخامس ١٩٦٠ ص ١٦ .

(٣) يوسف ٣٥ .

(٤) الزمخشري ، الكشاف ٤٦٨/٣ .

## مكتبتنا العربية

- لهذه اللغة أن تكون لغة العرب عامة وانها تغلبت على الكثير من معالم اللهجات السائرة .
- ووجود اللهجات السائرة وتنصلها عن التمسك بقيود الاعراب دليل على ظهور
- مرحلة جديدة في تاريخ العربية أو شكت أن تعم لولا ما كان من أمر لغة التنزيل .
- وفي هذه المرحلة الجديدة تخففت العربية من ضوابط الاعراب .

على أن المعلومات التي بين أيدينا عن اللهجات الخاصة لا تتعدى الاشارات الموجزة والعلامات التي لا تعدو أن تكون ملاحظات لا تكون في مجموعها مادة كافية لرسم صورة للهجة من اللهجات في بداية القرن الاول الهجري ، ذلك ان النحويين واللغويين قد جمعوا هذه الملاحظات منذ ان بدأوا في تثبيت قواعد العربية ، وظلت هذه الملاحظات تتناقل من جيل الى جيل دون تصنيف وضبط بحيث لا نستطيع أن ننسب على وجه التحديد أية اشارة من هذه الاشارات اللغوية الى اصحابها ، والامثال كثيرة للبرهنة على ترددهم وعدم تحريرهم وجه الصواب في هذه الاشارات بحيث يبدو فيها للباحث أثر الاصطناع والكذب والتقليد فقد جاء في كتب الادب قول هوهر الحارثي :

تزود منا بين أذناه ضربة دغته الى هابي التراب عقيم<sup>(٥)</sup>

وفي البيت التزام المثني الالف في جميع الاحوال ، وهي لغة بني الحارث بن كعب ، وهي عند هؤلاء قلب الياء الساكنة اذا انفتح ما قبلها الفاً فيقولون : أخذت الدرهمان ، واشترت ثوبان<sup>(٦)</sup> . وفي هذه اللغة ان الف حرف في الجر ( الى ) و ( على ) تبقى على حالها اذا كان مدخولها ضمير غائب او مخاطب ، كما جاء في النوادر لابن زيد الانصاري ، أن المفضل الضبي ذكر لبعض أهل اليمن قوله :

أى قلو ص راكب تراها طاروا علاهن فطر علاها<sup>(٧)</sup>

ولم ينسب السيوطي هذه اللغة لبني الحارث بن كعب وحدهم ، فقد عزاها لبني

---

(٥) لسان العرب ١٠/٦٤ ؛ ١٩/١٦٣ ؛ ٢٠/٢٢٦ .

(٦) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ٣٦ ، ابن فارس ، الصحابي ٢٠ .

(٧) ابو زيد ، النوادر ٥٨ ؛ ابن فارس ، الصحابي ٢٠ .

## مكتبتنا العربية

العنبر وبنى الهجيم وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيد وخثعم وهمدان ومزدادة وغدرة<sup>(٨)</sup> .

وهذه الاشارات لا تتجاوز مسائل الابدال والقلب وسائر الحركات وما يتعلق بشيء قليل من الامور الصوتية ، ولم يعدها بعضهم من المستساغ المقبول ، فالسيوطي يحشرها في باب « الردى المذموم من اللغات »<sup>(٩)</sup> كالشكشة والكسكسة والتلتلة والعنفة والفضخة والعججة وغيرها . كما انها غير منسوبة نسبة صحيحة كما اشرنا ، فالعنفة لغة قيس وتميم عند السيوطي ، وهي تعرض في لغة قضاة عند الثعالبي<sup>(١٠)</sup> ، وفي لسان العرب غير هذا<sup>(١١)</sup> .

واذا كانت هذه اللهجات لا تعطى الا صورة شوهاء غير كاملة لمرحلة لغوية في تاريخ العربية ، فهل لنا ان نجد ذلك في تاريخ اللهجات العربية الجنوبية كالمينية والحميرية والسبئية او في اللحيانية والثمودية والصفوية والنبطية ؟ والجواب عن هذا السؤال ان بين هذه اللهجات جميعها وبين العربية الفصحى كما عرفناها في لغة القرآن أو في لغة ما صحح من النصوص الجاهلية فروقا بعيدة ، ومعنى ذلك انه ليس من المعقول اتخاذ أية لهجة من هذه اللهجات صورة للعربية الاولى ، أو صورة للمرحلة التي سبقت الفصحى المعروفة في لغة القرن الاول الهجري . ونحن نطرق هذا السبيل لعدم توفر النصوص الصحيحة المدونة في هذه المرحلة اللغوية التي ننشدها ، ثم اننا نجرب هذه التجربة لان بين أيدينا من هذه اللهجات نصوصا مكتوبة وهي النقوش التي أهتدى لها العلماء في بحوثهم التنقيسية . على ان طائفة من هذه النقوش مكتوبة بالآرامية وهي اللغة الثقافية كما هي الحال في النقوش النبطية<sup>(١٢)</sup> ، فقد كتب النبط نقوشهم بالآرامية وان كانت لغتهم عربية<sup>(١٣)</sup> .

(٨) السيوطي ، همع الهوامع ٤٠/١ .

(٩) السيوطي ، المزهر ٢٢١/١ .

(١٠) الثعالبي ، فقه اللغة .

(١١) لسان العرب : قال الفراء : تميم وقيس واسد ومن جاورهم يجعلون الف ( أن ) اذا كانت مفتوحة عيناً .

(١٢) Dhorme, Langue of écriture sémitique.

(١٣) دوسو ، تاريخ العرب في سوريا ٢٧ .

## مكتبتنا العربية

ويتبين من هذا العرض ان المواد الضرورية لم تتوفر لنا لمعرفة المرحلة اللغوية التي سبقت عصر القرآن ، فلا بد اذن أن نسلك سبيلا آخر للوصول الى شيء مما نصبو اليه ، وذلك بالرجوع الى نصوص العربية المثبتة في كتب اللغة والادب والنحو ونستقرئها استقراءً دقيقاً لنخلص الى موضوعات تؤلف منها مادة لغوية اتصفت بها المرحلة السابقة لعصر القرآن .

وهذه المادة اللغوية تشتمل على معلومات تتعلق بالابنية والصيغ والاوزان كما تتعلق بمسائل خاصة ببناء الكلمة في العربية وكيف توفر لبنية هذه الكلمة الانسجام والتكافؤ الموسيقي ، ولنعرض الآن الى هذه المسائل .

### (١) الابتداء :

والذي نلاحظه أن العربية لا تستسيغ الابتداء بالسكن من الحروف ، ولذلك قرر الخليل بن أحمد أن « حرف اللسان لا ينطلق بالسكن من الحروف »<sup>(١٤)</sup> . والعربية لا تعجز هذا كما اجازت ذلك اللغات الاجنبية الكثيرة ، ولهذا يستعان بالهمزة المفتوحة للتوصل الى النطق بالساكن متخذة وسيلة أو قل معبراً الى هذا الساكن من الحروف ليظهر في سكونه .

وكان يقول - بعد تمثيله للخمسة من الالف قال - : « الالف التي في اسحنك واقشعر واسحنفر واسبكر ليست من أصل البناء ، وانما ادخلت هذه الالفات في الافعال وامثالها من الكلام لتكون عمادا وسلما للسان الى الحرف الساكن »<sup>(١٥)</sup> .

وسأل الخليل جماعة فقال : كيف تلفظون بالحرف الساكن ، نحو ياء غلامى وباء اضرب ودال قد ؟ فقالوا له : نقول ياء وباء ودال ، فلم تعجبه اجابتهم ، لانهم انما لفظوا بالاسم ولم يلفظوا بالحرف ولم يحكوه ، كما هو في غلامى واضرب وقد . فقال لهم : اقول : أب واى واد ، فالحق الفأ موصولة . قال : كذلك اراهم صنعوا بالساكن ، الا تراهم قالوا : ابن واسم حيث اسكنوا الباء والسين ، وانت لا تستطيع ان تكلم بساكن في اول الاسم كما لا تصل الى اللفظ بهذه السواكن فألحقت الفأ حتى وصلت الى اللفظ بها ،

(١٤) الخليل ، الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢ عن المخزومى فى الخليل بن احمد الفراهيدى ١٧٦ .

(١٥) المصدر السابق .

## مكتبتنا العربية

فكذلك هذه الالفات حتى تصل الى اللفظ بها كما ألحقت المسكن الاول فى الاسم (١٦) .  
والكلمة العربية اتصفت بالتكافؤ والانسجام بين اجزائها فى الحركات والاصوات ،  
ومن أجل ذلك يؤتى بالهمزة التى يستعان بها على النطق بالساكن مكسورة او مفتوحة ،  
او مضمومة اذا كان الحرف الذى يلي الساكن مضموماً مثل أستنصر واعترف فتضم الهمزة ،  
ليتماثل الصوت ويكون العمل فيهما على وجه واحد (١٧) .

والذى اريد ملاحظته فى هذا الباب هو القول بأن المرحلة السابقة لهذه العربية  
الفصيحة كانت تجيز الابتداء بالساكن ، والذى يقوى هذا الافتراض عندى قولهم : ان  
امر الثلاثى فى العربية همزته همزة وصل ، والناطق المجيد لهذه البنية لا يحس بهذه  
الهمزة ، فلسانه ينطلق بالضاد فى كلمة اضرب ( الامر ) قبل أن ينطلق بشيء اسمه  
الوصل واجادة النطق تستدعى محو هذه الالف اطلاقاً . وعلى هذا جاء نطق المغاربة فى  
ايماننا هذه ، فهم ينطلقون بالساكن فى افعال الامر الثلاثية ، ومن أجل ذلك فان ما ندعوه  
بالنبر "Accent Tonique" يكون عندهم واقعا فى نهاية الكلمة . ومثل هذا تنطلق  
بالساكن اذا بدأنا بالاسماء التى نصوا على أن الفاتحة للوصل كما فى ( ابن ) و ( اسم )  
فانت تنطلق بالساكن او بشيء فيه سيكون او بنصف الساكن ان اسعفتنا لغة الاصطلاح ،  
حتى يتم النطق بالكلمة على الوجه اللازم .

ووجود هذه الناحية ربما كان دليلاً على الابتداء بالساكن فى العربية التى سبقت  
هذه المرحلة الفصيحة كما يقوى هذا القول استساغة الانطلاق بالساكن فى سائر اللغات  
السامية الاخرى ، بل ربما كانت الآرامية السريانية اشد قبولاً للبدء بالساكن من المتحرك ،  
ومن أجل ذلك صارت هذه الناحية من ميزاتها الظاهرة .

### (٢) التقاء الساكنين :

اختصت العربية من بين سائر اللغات السامية بهذه الناحية مراعاة منها للتكافؤ  
والانسجام فى بنية الكلمة الواحدة وفى اتصال الكلمة بغيرها حتى يجيئ الكلام العربى  
على هيئة مخصوصة موسيقية منسجمة .

(١٦) سيبويه ، الكتاب ٢/ ٦٢ .

(١٧) المصدر السابق ٢/ ٢٧٢ .



## مكتبتنا العربية

على ان الباحث في غرائب العربية وفرائدها واجد من هذا الباب شيئاً وهو قليل جداً ، وقلته ذات دلالة خاصة ، فهي تشير الى وجود التقاء الساكنين في تلك المرحلة اللغوية السابقة للمرحلة المعروفة ، والا فكيف نعلل وجود الساكنين في كلمتي (حمارة) و (صبارة) في قولهم : حمارة القيظ وصبارة القر ، ومثل هذا ما حدث من التقاء الساكنين في اسماء الفاعلين من الافعال الثلاثية المضغفة مثل ( حال ) و ( ماد ) ، ذلك ان العربية توجب الادغام في هذه الالفاظ . ووجوب الادغام يستدعي التقاء الساكنين والذي أراد أن من العرب من كان يجيز فك الادغام مخالفة للقياس المعروف ، ومطاوعة منه لسنن العربية التي لا تحتمل التقاء الساكنين فكان يفك الادغام في هذه الالفاظ وعلى هذا جاء قول المتنبى :

فلا يبرم الامر الذي هو حال  
الى آخر البيت . . .

وليس معقولا ان يحمل هذا على تخطئة المتنبى ، فقد كان علما بشوارد اللغة والنحو فلا يجوز أن يكون جاهلا بهذا ، ثم انه لم يلجأ الى ذلك ضرورة شعرية فقد كان في طوقه أن يتحاشى هذه الضرورة - ان صحت - باستعمال مرادفة لكلمة حال ( حال ) وذلك كثير ميسور . اما الذي سوغ له استعمال الكلمة احتمال فك هذه الادغام في لغة من لغات الناس في ذلك الزمان هروبا من التقاء الساكنين ، كما هي الحال في ايامنا هذه في لغتنا العامية الدارجة ، فهناك من يلتزم ادغام هذه الالفاظ محتملا التقاء الساكنين كما أن هناك من يلجأ الى فك الادغام هروبا وتخلصا فيقول مثلا ( دازر ) و ( شادد ) بدلا من ( داز ) و ( شاد ) .

وقد هربت العربية من احتمال التقاء الساكنين في بنية الكلمة الواحدة الثلاثية الساكنة العين ، اذ يلتقي فيها ساكنان العين واللام لان اواخر الكلمة سواكن اذا لم تدخل هذه الكلمات في جمل او اذا ما وقف عليها كما تقول ( فخذ ) باسكان الحاء في ( فخذ ) المكسورة الحاء<sup>(١٨)</sup> . وفي خزانة البغدادى ان الفعل الذي عينه حرف حلق وكان على ( فعل ) بكسر العين فلك فيه اربع لغات كالحال في ( فخذ )<sup>(١٩)</sup> ، وفي ( الاقتضاب )

(١٨) المبرد الكامل ١١٤/٢ .

(١٩) البغدادى ، الخزانة ١٠١/٤ .

## مكتبتنا العربية جواز تخفيف عين ( فعل ) مضموم العين ومكسورها (٢٠) .

وفى المحتسب لابن جنى : ما سمع فيه (فعل) بضم الفاء واسكان العين الا وسمع فيه (فعل) بضم الفاء والعين (٢١) ، ومنه اسكانهم نحو (رسل) و (عجز) و (عضد) و (كتف) و (كبد) (٢٢) .

والحكمة فى هذا التحريك هو الهروب من التقاء الساكنين كما بيناه . على اننا نجد مثل هذا فى لهجتنا العامية البغدادية فى الاسماء الثلاثية التى تضطر الى تحريك عينها بحركة مناسبة هروبا من التقاء الساكنين فنقول ( فعل ) بكسر العين مجازاة لكسرة الفاء ولالتقاء الساكنين كما فى ( اسم ) و ( عجل ) ، ونقول ( تمر ) بضم الميم و ( قبر ) باسكان العين فيهما . والسبب فى ذلك ما بيناه لاننا لو رجعنا الى نطق هذه الكلمات فى لهجة عامية أخرى ، ولتكن اللهجة المصرية لوجدنا المصريين ينطقون هذه جميعا باسكان العين احتمالا منهم لالتقاء الساكنين .

واذا اردنا استقرار النصوص الفصيحة وجدنا هذه الناحية فى الافعال المضعفة المزيدة بثلاثة احرف كما فى وزان ( افعال ) مثل ( احمار ) وهذه الافعال قليلة وقلتها تشير الى انها من بقايا المرحلة السابقة القوية التى اشرنا اليها . فهذه الصيغة قديمة وهى دالة على المبالغة ، وهى ثقيلة لوجود الساكنين ، ثم تخففت فى الاستعمال فخفضت لسنة العربية الفصيحة فى المرحلة اللاحقة فاستحالت الى ( احمر ) وهى فى المعنى نفسه والمبالغة حاصلة فيها ، وليس كما علل الصرفيون بأن المبالغة فى الاولى اكثر . ومن هذا قولهم : غار الطائر فرخه بتشديد الراء فى ( غار ) (٢٣) ، وفى هذا الفعل قد التقى الساكنان ، ومنه ايضا ( غارت الناقة فى الحلب ) ، وما قلناه فى ( احمار ) و ( احمر ) يصدق على قولهم ( غار ) فقد تخفف هذا الفعل حتى لجأ الاستعمال الى ( غر ) الثلاثى المضعف وفى ذلك كفاية وغناء .

(٢٠) ابن السيد ، الاقتضاب ٢٠١ .

(٢١) ابن جنى ، المحتسب ١/ ١٩٠ .

(٢٢) ابن جنى ، الخصائص ١/ ٧٥ .

(٢٣) المبرد ، الكامل ١/ ٣٧ .

وما زلنا نحمل على الخطأ او على طريقة العوام فى لهجتهم الدارجة قولهم — ( استمررت ) باسناد الفعل استمر المضعف الى تاء الفاعل • وفى العربية الفصيحة شئ من هذا وهو قليل ، ولعل قلته راجعة الى أنه من البقايا اللغوية القديمة التى تشير الى مرحلة لغوية قديمة قد سبقت الفصح المعروف والمثل فى لغة التنزيل والحديث • والى هذا ذهب المبرد فى شرح كلمة (التقضى) فى قول العجاج :

تقضى البازى اذا البازى كسره

والتقضى الانقضاض والعرب تبدل الياء من احد التضعيفين فيقولون (تظنيت) والاصل (تظننت) لانه من الظن<sup>(٢٤)</sup> • ومنه (قصصت) و (وقصيت)<sup>(٢٥)</sup> • والمستقرى • للنصوص اللغوية واجد من هذا الموضوع شيئاً يصلح أن يكون مادة مفيدة للبحث •

#### (٤) اسم المفعول :

فى اسم المفعول من الفعل الثلاثى الاجوف فذلكة لغوية فنقول : (مبيع) من (باع) و (صان) ، وهذه الفذلكة داخله فى باب الاعلال وليس بنا حاجة لشرحه فى هذا المقام ، وانما نريد أن نقول أن لهجاتنا الحديثة الدارجة لا تلجأ الى هذا الاعلال ، بل تصوغه على وزن مفعول فتقول (مبيوع) ، وهذه الصيغة واردة فى الفصح من العربية ولكنها مسموعة وسماعها يخالف القياس المشهور وهو دليل على انه من البقايا اللغوية القديمة التى تتسم بها المرحلة السابقة التى اشرنا اليها •

وقد جاء من هذا الباب (مصوون) و (مقوود) و (مقوود) و (ومعوود)<sup>(٢٦)</sup> • وفى القاموس اسعده فهو مسعود<sup>(٢٧)</sup> • واكمده فهو مكمود<sup>(٢٨)</sup> • والقح الفحل فى الناقة فهى (ملقوحة)<sup>(٢٩)</sup> • وهذه الامثلة تشير الى أن وزن (مفعول) هو اصل فى

(٢٤) المبرد ، الكامل ٧٦٠/٢

(٢٥) ابن السيد ، الاقتضا ١٣٧

(٢٦) المصدر السابق ٢٧٤ - ٢٧٥

(٢٧) الفيروزابادى ، القاموس ، مادة سعد •

(٢٨) لسان العرب مادة كمد •

(٢٩) المصباح المنير مادة لقح •

## مكتبتنا العربية

صيغة اسم المفعول ولا يختص بهذه الصيغة الفعل الثلاثي ، ولعل في هذه الامثلة دليلا على قدم هذه الصيغة في مراحل اللغة الاولى .

### (٥) مطل الحركات :

افرد ابن حنى في كتاب الخصائص فصلا لموضوع مطل الحركات والمراد بمطل الحركات مد الحركات ، وقد استفادت العربية من هذا المد كثيراً في تنويع الصيغ وتكثير المعاني . فقد مدت ضمة العين في المضارع كما في (ينبع) فصار (ينبوع) ومثل هذا (يحمور) و (يخضور) و (يعفور) ، وقد انتقلت هذه الصيغ في العربية الى الاسمية وهو كثير في اللغة . على انه لا تخفى الصلة في هذه الالفاظ بين الفعلية والاسمية فعلاقة اللون واضحة وربما هي التي سوغت هذا الانتقال اللغوي . ونستطيع أن نفترض أن يكون اصل الفعل المضارع في مرحلة لغوية قديمة على هذا الشكل . ومعلوم أن بين الاسم والفعل المضارع شبه ولهذا سمي بالمضارع لانه مضارع للاسم المعرب . والتسمية بالافعال المضارعة قديمة جداً فقد عرف (يعوث) و (يعوق)<sup>(٣٠)</sup> من آلهة اليمن .

ومما يتعلق باب مطل الحركات كلمة (اليعقيد) وهو العسل يعقد بالنار حتى يخثر ، وقيل طعام يعقد بالعسل ، ومنه اليعقيد وهي بقلة زهرها اشد صفرة من الورس وقيل غير هذا<sup>(٣١)</sup> .

ونستطيع أن نرد صيغة فاعول الى مطل الحركات فالعمود لا بد أن كان (عامود) ثم خفف الى (عمود) وليس لنا أن نحمل العامود على الكلام العامي فمثله الشاقول والناعور وكثير من اسماء الادوات .

وفي كتب اللغة نصوص تشهد على هذا الباب فقد انشد ابو على الفارسي لابن هرمة يرثي ابنه : من قوله :

فانت من الفوائل حين ترمى      ومن ذم الرجال بمنتزاح  
واراد بمنتزح .

وهذه المواد تعطينا بعض الشيء عن خصائص العربية القديمة قبل أن تتوحد

(٣٠) الكلبى ، الاصنام ٥٧ .

(٣١) الزبيدي ، تاج العروس ، انظر مادتي عقد وعضد .

وتسجّم في قلبها المعروف الفصيح •

### (٦) صيغ الفعل المجرد :

المعروف عند الصرفين أنهم صنفوا الأفعال الثلاثية في ستة أوزان ورتبوها حسب ورودها في الكثرة غير أن الناظر في النصوص وفي كتب اللغة يجد فيها شيئاً يؤدي به إلى الاعتقاد أن هذه الأفعال لم تكن مستقرة ولا سيما في القرن الأول الهجري ، وأن فعلاً من الأفعال مثلاً قد يكون على الوزن الأول (باب نصر) عند قوم من الناس ، ولكنه من (باب ضرب) عند آخرين • وبقيت هذا التردد في اعتبار وزن الفعل طوال القرن الأول والقرن الثاني ، حتى إذا تم تثبيت قواعد اللغة ، استقرت هذه الأفعال على حال ثابتة ولا سيما الأفعال التي يكثر تداولها في التخاطب والكتابة على الأقل •

ولقد ورد شيء من هذا الذي نذهب إليه على السنة علماء اللغة ، فقد قال أبو زيد الانصاري : إذا جاوزت المشاهير من الأفعال فانت بالخيار بين الضم والكسر (٣٢) • وقال الفراء : الأصل في المضارع الكسر (٣٣) •

وهذا التردد في معرفة الأوزان وضبطها وتثبيتها قد تم في لغة القرآن بالرغم من أن كتب اللغة ظلت تذكر اللغات المختلفة في وزن الأفعال التي اختلفوا فيها ، فقد قالوا في (فسد) هو من باب نصر عند قوم ، وهو من باب (كروم) على رأي آخرين • وهذه الحال تدل على أن الأفعال الثلاثية في المرحلة السابقة لعصر القرآن لم تكن مستقرة على حال وكان الحكم فيها للقائلين يؤلفون بين حرركاتها كما يشاءون •

### (٧) الجموع :

الجموع من المواد اللغوية القديمة ، وقد احتفظت بها اللغة العربية • وربما دلت كثرة الجموع في العربية على اختلاف اللهجات ولا سيما جموع التكسير ، ويعني هذا أننا نجمع كلمة واحدة على عدة صيغ من صيغ الجمع (Chème) فالشيخ يجمع على (شيخة) ويجمع على (شيوخ) بضم الشين وعلى (شيوخ) بكسر الشين وعلى (أشياخ) ، ومثل هذا كلمة (الحب) بكسر الحاء فتجمع على (أحباب) ، و (حبان) بكسر الحاء وتشديد الباء ، و (حبوب) و (حبية) بكسر الحاء ، و (حب) بضم الحاء (٣٤) • ومثل

(٣٢) الفيروزابادي ، مقدمة القاموس •

(٣٣) لسان العرب مادة اتي •

## مكتبتنا العربية

هذا كثير في اللغة العربية وهو دليل على أن الجمع لم يستقر على حال وأنه يشير الى المرحلة التي كانت فيها اللغة غير مستقرة على صيغ ثابتة ، ومن اجل هذا حدثت هذه الكثرة في الصيغ ، وسبب هذه الكثرة راجع الى اختلاف الاقوام واختلاف الجهات •

وفي جمع المذكر السالم الفاظ سماها النحاة الاقدمون بالملحقات وذلك لعدم انطباق الشروط التي اتفقوا عليها في جمع الاسم هذا الجمع المعروف وبقاء هذه الالفاظ التي ألحقت بجمع المذكر السالم يشير الى مرحلة لغوية قديمة ، تلك المرحلة التي لم تقيد فيها اللغة بضوابط واضحة • وهذه الالفاظ هي الفاظ العقود مثل ( عشرون ) واخواتها ، وارضون ووابلون واهلون وعالمون ، ومن هذا الباب أصول ثنائية (Bieitère)

مثل ( بنون ) و ( مئون ) و ( قلون ) و ( سنون ) و ( عضون ) كما في قوله تعالى : « الذين جعلوا القرآن عضين »<sup>(٣٥)</sup> أى فرقوه أعضاء ، ومثله ( عزيز ) جمع عزة أى فرقة • ومنه ثبة قد جمعت على ( ثبون ) كما في قول عمر بن كلثوم :

فأما يوم خشيئنا عليهم فتصبح خيلنا عقباً ثينا<sup>(٣٦)</sup>  
ويتبين من هذا أن هذه المواد اللغوية المتخلفة عن مرحلة قديمة بقيت في العربية الممثلة في لغة القرآن ولغة النصوص الجاهلية التي يطمأن الى صحتها •  
(٨) الابنية الغريبة :

واقصد بالابنية تلك الصيغ التي وجدت في النصوص اللغوية القديمة والتي لم يكتب لها الشيوخ ثقلها ولطول بنائها والتي عدت من باب الغريب مرة ومن باب الوحشي المهجورة مرة أخرى •

ولابد من ضرب الامثال على هذه الابنية الغريبة لنخلص الى نتيجة من النتائج ، جاء في النوادر لابي زيد المبرنتي<sup>(٣٧)</sup> هو الغضبان الذي لا ينظر الى أحد ، وكان على ابي زيد أن يأتي بالشاهد لتكون على بينة ، وهذه الناحية من العيوب في المعجم العربي

(٣٤) لسان العرب مادة حيب •

(٣٥) سورة الحجر ٩١ •

(٣٦) معلقة عمر بن كلثوم ضمن شرح العشر ١١٦ •

(٣٧) ابو زيد ، النوادر ١٣٠ •

## مكتبتنا العربية

القديم لانهم لا يهتمون باستقراء الاستعمال لتأييد المعنى الذى ينصون عليه ، وربما كان هذا حجة لمن يقول بالاصطناع والاختراع فى المعانى ، وان اللغوى يلجأ الى هذا الباب ليظهر أنه عارف باللغة وفرائدها • ومثل هذا كثير فى كتب اللغة المطولة • ولا بد من دليل آخر على اصطناع هذه الالفاظ وهو انهم يذكرون للفظ الواحد معانى عدة لا علاقة بينها فقولهم : مجنطىء وهو العظيم البطن ، والممتلىء غيظا • والمحرنجم هو الذى يريد الامر ثم يكذب فيرجع (٣٨) ، فى حين أن ( احرنجم ) عندهم بمعنى اجتمع ووجه العلاقة بين الاسم والفعل غير موجود اطلاقا •

وقد افرد ابن دريد فى الجمهرة فى الجزء الثالث باباً للاوزان الغريبة كالفعلل مثل الهمرجل للخفيف السريع ، والشمردل للطويل والدلهمس للجريء الماضى على الليل ، والجلنفع للصلب الشديد والعنكد للصلب الشديد والعديس للشديد الحلق • وفى وزن الفعلول الشغموم للناقة القوية والطلحول والصلوك للفقير ، والقروضوب للخص ، واللمموظ للشرة والنهم ، والصحموز للعظيم البطن •

ومن الفيعلى ، الهذيبى والخيزلى • ومن الفيعلول ، الناقة العيسجور النشيطة ، والختجور للذى لا يدوم على العهد • ومن الفعوال ، القرواح للنخلة المساء •

ومن الفيعلول ، العيثوم الناقة الغليظة • وسيهوج وسيهوك اسمان توصف بهما الريح •

ومن الفيعل ، الهيدام وهو الصارم (٣٩) •

وهذه الابنية غريبة كثيرة اجتزأنا بهذا القدر منها ، ونريد أن نقول فيها شيئاً وهو أن الغالب فيها ذو دلالة مادية فلا ينصرف الى الناحية المجازية وأن المعانى التى ترد فى هذه الابنية متعلقة بالافصاف الحسية كالطول والقصر والضخامة والعظم والدقة وشدة الحلق والسرعة والحفة وغير هذا مما هو داخل فى هذا الخصوص • والحلق والاصطناع

(٣٨) المصدر السابق ١٩٨ •

(٣٩) ابن دريد ، الجمهرة ٣ / ٣٨٠ •

## مكتبتنا العربية

واضح فى هذه الابنية فالالفاظ التى تعنى شدة الخلق فيها كثيرة ومختلفة • وهى تنصرف للانسان تارة وللحيوان تارة أخرى •

ولكن هذه الابنية على العموم قديمة ، وان الالفاظ التى وضعت لهذه المعانى من هذه الصيغ تقليداً وحكاية لما كانت عليه الابنية فى اللغة القديمة فى مراحلها الاولى •

وانا اذ انهى هذه المقالة اود أن أقول ان عملى كان استقراء النواحي اللغوية التى يمكن أن تكون مادة مهمة فى مراحل اللغة القديمة ، أما اعطاء صورة واضحة المعالم لهذه اللغة فى تلك المراحل فليس سهلاً ، ذلك اننا مفتقرون للنصوص الثابتة المدونة كما فى سائر اللغات الحية •



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي